إسماعيل ياسين

مجوهراتى الضحك

- ٥١ مسرحية و ٤٠٠ فيلم و٤٠ عاما من الابتسامات والدموع
- ترك صياغة الذهب وصاغ سعادة الناس
- ١٧ فيلما حملت اسمه ونجحت.
- رحل ومعه زمنه ومازال المفضل لدى مشاهدى التليفزيونات العربية.
- مات من الفم والحزن والنكد.

لم يخطئ شاعر العرب عندما قال:

«سيذكرنى قومى إذا جدّ جَدّهم

وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر»

فقد عزّ الضحك النظيف فى زماننا هذا، وغطت هزائمنا على أفراحنا، وصرنا نعانى فقراً مدقعاً فى معرفة ما نريد حقاً.

قلبنا دفاترنا القديمة، فوجدنا كنزاً لم يأخذ حقه من التقدير فى أواخر زمانه، ووجد نا فى هذا الكنز سلوى لكبيرنا وصغيرنا.

وجدنا إسماعيل ياسين، الذى نراه الآن على شاشة التليفزين فنضحك كباراً وصغاراً، حتى قبل أن نسمع ما يدور من حوار.

تربع «إسماعيل ياسين» على عرش الضحك قرابة الأربعين عاماً يضحك الناس، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، وكان ولا يزال الممثل العربى الوحيد الذى أُنتجت له أفلام تحمل اسمه.

والمؤسف أن صانع الضحك وزارع الابتسامة فى القلوب مات من الغم والحزن والنكد، بعد أن أدار له الزمن ظهره، ولكنه سجل اسمه خالداً فى مقدمة صفحات الضحك، بين ١٥ سبتمبر ١٩١٢ يوم ميلاده، و ٢٤ مايو ١٩٧٢م تاريخ رحيله، عاش إسماعيل ياسين. قصة كفاح وعرق مليئة بالضحك والدموع.

طفولة بائسة

عاش إسماعيل طفولة بائسة غير مستقرة. ولم يمض فى المدرسة الابتدائية

سوى أربع سنوات، انقطعت بعدها صلته بالتعليم إثر وفاة والدته. وبعد خروجه من المدرسة عمل منادياً أمام متجر لبيع الأقمشة، وظيفته جلب الزبائن للشراء، وكان على الجانب المقابل لمحل الأقمشة مقهى شعبى فيه آلة «فونوغراف» كان صوت المغنى الشاب محمد عبد الوهاب ينطلق منها فيصل إلى سمع إسماعيل ياسين، الذى يعشق الغناء، وتمنى أن يكون يوماً مثل صاحب هذا الصوت.

سيطر عشق صوت عبد الوهاب على الفتى ابن الثانية عشرة، والذى أصبح يلتقى بعد أن ينتهى من عمله، ببعض الأصدقاء فى أطراف مدينة السويس، يغنى لهم ما حفظه من تلك الأغانى، وكان الفتى يسرح بخياله بعيداً متخيلاً نفسه مطرباً مثل عبد الوهاب، فعبد الوهاب لم يكن ابناً لباشا أو «بيك» بل كان من عامة الشعب، فلماذا لا يصبح هو مطرباً مثله؟ هذا الحلم كان الأمنية التى أصبح يعمل الفتى من أجلها.

وكان «ياسين أفندى» والد إسماعيل، يريد أن يرث أبنه مهنته كصائغ للذهب، فى حى الأربعين، لكن إسماعيل تمرّد على هذه الرغبة، بعد أن أصبح الفن هو الدم الذى يسرى فى عروقه فقرر أن يذهب إلى القاهرة دون عالم والده.

شائعة اختطافه

لم يكن الأب يظن أن ابنه سيجرؤ على هذه الخطوة، فهو لا يملك النقود التى تسمح له بمغادرة السويس بعد أن حرمه من المصروف، وطالت غيبة إسماعيل، وسرت الشائعات تفسر غياب الابن، منها أن عصابة اختطفته طمعاً فى ذهب أبيه، وشائعة أخرى أنه هرب بعد أن حرمه والده من المصروف.

وكان ياسين أفندى جالساً يوماً فى محله، عندما دخل عليه أحد الأصدقاء وأخبره بأنه شاهد ابنه إسماعيل في «السيدة زينب» فى القاهرة، حيث كان يغنى مع إحدى الفرق الشعبية التى تجوب الموالد، وسافر الأب بحثا عن ابنه، وصل إلى «السيدة زينب» وكان المولد الخاص بها قد بدأ. وازدحم الحى بالناس. وظل الرجل أربعة أيام يبحث دون جدوى. وبعد أن قرر العودة إلى السويس. وقبل

أن يهم بمغادرة أحد المقاهى شاهد ابنه يدخل من الباب، فأسرع إليه معانقاً وقال الابن لأبيه، وهو يرتعد من الخوف، إنه أنضم إلى هذه الفرقة عندما كانت تتجول فى أحياء السويس وانتقل معهم إلى القاهرة.

وعاد ياسين أفندى بولده إلى السويس، وأشاع بين الناس أن ابنه قد تاه فى القاهرة ولما علم بخبره ذهب وأتى به ولكن إسماعيل هرب مرة أخرى.

علقة ساخنة

ترك إسماعيل، رسالة لوالده يخبره فيها بأنه قرر الإقامة فى القاهرة، وأشاع ياسين أفندى بين جيرانه أن ابنه ذهب ليكمل تعليمه فى القاهرة، فقد كان يخجل من أن يقول لهم إنه ذهب ليعمل «مغنواتى».

وكانت القاهرة فى الثلاثينيات من القرن العشرين زاخرة بكل ألوان الفنون، وكانت طبقة من أثرياء الريف ترتاد المسارح المنتشرة فى روض الفرج وعماد الدين، وكان أصحاب المسارح يستعينون بالمطربين لإداء بعض الوصلات الغنائية بين الفصول، وكان من أشهر هؤلاء المطربين الصاعدين: إبراهيم حمودة وعبد الغنى السيد.

وفى القاهرة حاول، إسماعيل ياسين، أن يجد له مكاناً بين هؤلاء المطربين، لكن ملامح وجهه وتكوينه البدنى حالا دون اقتناع أحد به كمطرب.

وفى أحد الحفلات وبينما كان يغنى «أيها الراقدون تحت التراب» انهال عليه أقارب العروس والعريس، والمدعوون، ضرباً، إلا أن أحد الحاضرين أنقذه من بين أيديهم ونصحه بأن يتجه إلى «المونولوج» خاصة وأن ملامحه تؤهله لذلك، ولكن من أين له النقود، وتكاليف المونولوجات باهظة، فلابد من نقود لكى يدفع للمؤلف والملحن، إضافة إلى أنه يحتاج إلى «بدلة» جديدة يرتديها وهو يقدم نفسه إلى أصحاب الصالات، واضطر إسماعيل، إلى العمل كاتباً عند أحد المحامين، بمرتب شهرى، قدره ثلاثة جنيهات زادت إلى أربعة نتيجة اجتهاده فى العمل.

بدلة و ٣٥ قرشاً

كانت الأربعة جنيهات هى البداية، حيث أعطى مؤلف المونولوج جنيهاً، وحصل الملحن على جنيهين، واشترى إسماعيل بدلة من سوق «الكانتو» بمبلغ ٣٥ قرشاً، ودفع «للمكوجى» عشرة قروش. وارتدى البدلة، وذهب إلى إحدى الصلات، وأدّى الامتحان ونجح، ووقع عقداً للعمل، مقابل أربعة جنيهات فى الشهر، وهكذا وضع إسماعيل ياسين قدميه على بداية طريق الشهرة.

لكن إحساسه الداخلى كمطرب ظل يلازمه طيلة حياته، واستطاع خلال شهور قليلة أن يحقق شهرة جيدة داخل الصالات ورصيداً طيباً من «المونولوجات» ثم توجه إلى بعض محطات الإذاعة الأهلية، التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت، وألقى «المونولوجات» عبرها.

وقدم «مونولوجاته» بين فصول المسرحيات بعد أن سعى إليه أصحاب الفرق المسرحية، ووقّعت بديعة مصابنى معه عقداً قيمته ستة جنيهات فى الشهر، وعندما شاهد الفنان موريس شوفاليه «إسماعيل ياسين» أثناء زيارته مسرح بديعة صفق له كثيراً، وقال لبديعة إن إسماعيل «كوميديان» خطير، وله مستقبل عظيم، فرفعت مرتبه إلى خمسة عشر جنيهاً، وتألق فى فن «المونولوج» حتى كبر اسمه، ونافس بقوة نجمى هذا الفن فى ذلك الوقت، وهما حسن المليجى وسيد سليمان.

الفتى الوسيم

قصة إسماعيل ياسين مع السينما طويلة، بدأت عام ١٩٣٩م واستمرت حتى آخر فيلم له عام ١٩٧٠م. قدمه المخرج فؤاد الجزايرلى للسينما فيى دور صغير فى فيلم «خلف الحبايب» مع عقلية راتب، ونجح كممثل فتلقفه نجم الكوميديا على الكسار وضمه إلى فرقته المسرحية. وشارك معه فى فيلمين سينمائيين هما: «على بابا والأربعين حرامى» سنة ١٩٤٢ و «نور الدين والبحارة الثلاثة» سنة ١٩٤٤ من إخراج توجو مزراحى، فكان هذان الفيلمان البداية الحقيقية لإسماعيل ياسين على شاشة السينما.

وتعد فترة الأربعينات سنوات الانتشار السينمائى بالنسبة إلى إسماعيل ياسين، حيث بلغ متوسط عدد أفلامه فى سنوات نهاية هذا العقد خمسة عشر فيلماً كل عام كان أبرزها: «القلب له واحد» لهنرى بركات، و «ليلة الحظ» لعبد الفتاح حسن، و «ليلة الجمعة»، لكمال سليم، وهى كلها أمام أنور وجدى، و «عقبال البكارى» لإبراهيم عمارة و «محسوب العيلة» لعبد الفتاح حسن، وهما بطولة محمود المليجى وتحية كاريوكا، وأخرج له حسن حلمى فيلمى: «الأحدب» سنة ١٩٤٦م بطولة روحية خالد وسامية جمال ومحمود إسماعيل، ومحسن سرحان، وزينب صدقى، وزوزو شكيب، و «نور من السماء» سنة ١٩٤٧ مع محمود إسماعيل وفاتن حمامة، وزوزو حمدى الحكيم، ومنسى فهمى، وعبد الغنى السيد، وعبد العزيزي محمود وفردوس محمد، وأخرج له عبد العليم خطاب سنة ١٩٤٦ فيلم «سلوى» مع أمينة رزق. وروحية خالد، وسعاد حسين، ومحمود الميجى، وسيد سليمان ولطفى الحكيم.

مرحلة البطولة السينمائية

وهكذا نجح إسماعيل ياسين فى أن يصبح جزءا أساسياً فى التوليفة التجارية، التى كانت سائدة فى سينما ذلك الوقت، التى كانت تعتمد على مطرب وراقصة وصديق له المواصفات ذاتها، وتفسر هذه العناصر، التى اعتمدت عليها أفلام الأربعينات، وجود إسماعيل ياسين شبه الدائم فى أفلام كثيرة. وبدأت مطلع الخمسينيات، مرحلة البطولة السينمائية لإسماعيل ياسين، الذى أصبح مؤهلاً لملء الفراغ، بعد رحيل نجيب الريحانى، وتوقف على الكسار، وأسند إليه المخرج سيف الدين شوكت بطولة فيلمى «الناصح» سنة ١٩٤٩ و «فلفل» سنة ١٩٥٠م مع ماجدة ثم قام ببطولة فيلم «المليونير» مع كاميليا من إخراج حلمى رفلة سنة ١٩٥٠ أيضاً، وأخرج له سيد زيادة عام ١٩٥٢ فيلم «الدم يحن» أمام درية أحمد وحسين رياض.

وإلى جانب أدوار البطولة، شارك فى عدة أدوار مساعدة حققت نجاحاً ملحوظاً فى أفلام «بيت الأشباح» سنة ١٩٥١ مع كمال الشناوى وثريا حلمى

و«ذهب» مع أنور وجدى وفيروز سنة ١٩٥١ و «الحموات الفاتنات» فى العام ذاته، مع كمال الشناوى وكريمان.

نقطة الانطلاق

كان فيلم «الآنسة حنفى» نقطة الانطلاق الحقيقية التى أظهرت الإمكانات الفنية العالية لهذا الفنان وأكد الفيلم الذى أخرجه فطين عبد الوهاب سنة ١٩٥٤ أن إسماعيل ياسين. سيصبح علامة متميزة فى تاريخ السينما المصرية، فقد أعاد هذا الفيلم بقصته غير المألوفة، التى تدور حول شاب يتحول إثر عملية جراحية إلى فتاة، وضع اسم إسماعيل ياسين على قائمة أبطال السينما في ذلك الوقت. كان يوسف معلوف أول مخرج استخدم اسم إسماعيل ياسين فى عنوان الفيلم، عندما قدم عام ١٩٥٤ فيلم «مغامرات إسامعيل ياسين» أمام شادية وكمال الشناوى، وتبعه فى العام ذاته المخرج حسن الصيفى بفيلم عفريته إسماعيل ياسين، أمام كيتى وفريد شوقى، وتلتهما الأفلام الخمسة عشر الأخرى حتى عام ١٩٦١ وهى أفلام إسماعيل ياسين فى الأسطول، «إسماعيل ياسين فى البوليس» إسماعيل ياسين فى الطيران» و «إسماعيل ياسين فى الجيش» «إسماعيل ياسين فى حديقة الحيوان» «إسماعيل ياسين فى متحف الشمع» «إسماعيل ياسين فى مستشفى المجانين» «إسماعيل ياسين فى السجن» «إسماعيل ياسين للبيع» «إسماعيل ياسين طرزان» «إسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة» «إسماعيل ياسين فى دمشق» «إسماعيل ياسين ترجمان» «إسماعيل ياسين فى البوليس الحربى» «إسماعيل ياسين فى البحرية» وقد أخرج فطين عبد الوهاب ستة من أفلام هذه السلسلة، إضافة إلى عدة أفلام أخرى حققت نجاحاً ملحوظاً، ومنها: «ابن حميدو» و العتبة الخضراء» و «إمسك حرامى» و «حلاق السيدات»

واستمر عطاء إسماعيل ياسين فى السينما حتى نهاية الستينيات وبداية عقد السبعينيات، حيث كانت آخر أفلامه «الرغبة والضياع» مع رشدى أباظة وهند رستم، و «عصابة النساء» مع صباح وطروب، إخراج فاروق عجرمة سنة ١٩٧٠ وقد وصلت أفلامه إلى أكثر من ٤٠٠ فيلم.

صدفة مع الريحانى

انضم سنة ١٩٣٦ إلى فرقة أمين عطا الله وسافر معها إلى الشام وفى نهاية الثلاثنيات، كان لقاؤه الأول مع نجيب الريحانى، الذى كان يقدم مسرحية «حكم قراقوش»، فاستعان بإسماعيل ياسين لأداء الشخصية، التى كان يؤديها «المونولوجست» سيد شعبان، وقال له الريحانى، بين فصول الرواية «إنت إزاى بالشكل ده وأنا ما اعرفش؟ إنت كويس قوى، ولازم تبقى ممثل كويس».

والتحق إسماعيل ياسين سنة ١٩٤٢ بفرقة يوسف عز الدين كممثل ومقدم «مونولوج»، وكان قد عمل عام ١٩٣٦ مع فرقة أمين عطا الله، التى سافر معها إلى الشام، وانضم عام ١٩٤٥ إلى فرقة على الكسار، ورغم انشغاله بالسينما فى فترة الخمسينات، إلا أنه كان يشترك مع الفرق المسرحية الخاصة، التى كانت تتكون فى المناسبات مثل رمضان والأعياد، ومنها، فرقة «الأبطال الخمسة» التى تكونت سنة ١٩٥٠ وضمت كارم محمود وتحية كاريوكا والياس مؤدب ونجاة الصغيرة.

الانحدار

وبعد هذا التاريخ الطويل والكفاح من أجل التفوق وإثبات الذات، والتفرد على القمة، بدأ المرض يزحف إلى جسد إسماعيل ياسين وأصيب فى صيف عام ١٩٦٦ بالتهاب رئوى حاد، دخل على أثره مستشفى المواساة فى الإسكندرية مدة ثلاثة أشهر، التزم بعدها الإقامة فى بيته بناء على أوامر الأطباء وطالت الإقامة، ولم يعد فى الإمكان استمرار فرقته المسرحية، وتراكمت عليه المشكلات وحجزت الضرائب على ممتلكاته.

وانتظر طويلاً أن يطرق بابه أحد يطلبه إلى العمل، ولكن الزمن كان قد تغيّر والجحود أصبح هو السمة الغالبة، وتنكّر له الأصدقاء، واشتد عليه المرض وحال النقرس بينه وبين ممارسة حياته الطبيعية، لكنه ظل يحب الفن إلى آخر أيام حياته، ففى الساعة الواحدة من صباح ٢٤ مايو (آيار) سنة ١٩٧٢م توارت الابتسامة، التى رسمها على الشفاه أكثر من أربعين عاماً، وغابت الضحكة الصافية النابعة من أعماق القلب.

حوار على الورق مع «المدام»

أرادت «أم ياسين» زوجة الفنان إسماعيل ياسين، أن تكتب مذكراتها معه، وعقّب إسماعيل ياسين بنفسه على ما كتبت.

* تقول أم ياسين: «جئت إلى القاهرة عام ١٩٤٤م لزيارة أقاربى، الذين اصطحبونى إلى مسرح الكسار، ورأيت إسماعيل يلقى «مونولوج»، وكنت قد أعجبت به من قبل عندما شاهدته على مسارح الإسكندرية فى الصيف وصفقت له بحماسة بالغة. وبعد انتهاء الحفل رأيت إسماعيل يقف مع بعض أقاربى ثم حيانى، وفى ظهر اليوم التالى فوجئت به يحضر إلى أسرة أقاربى، الذين أقيم معهم فى موعد تناول الغداء وتملكنى الغضب بلا سبب ظاهر، واعتذرت عن تناول الغداء بحجة زيارتى إلى بعض المحال التجارية، رغم إغلاقها وقت الظهيرة».

** ويعقب إسماعيل ياسين: «هذه المرة كذبت مراتى لأن أهلها أفهمونى أنها سافرت إلى الإسكندرية ولم يقولوا لى إنها مش عاوزة تقابلنى».

* وقالت: «ولما تحدثت معى أمى مرة أخرى عن إسماعيل قلت لها»: «ده عبيط ياماما» وعندما جاء مرة أخرى إلى بيتنا يكرر المحاولة قلت له رأيى فيه، ولم يغضب إسماعيل، بل ضحك وقال: «دى حرفة.. وتمثيل وشخصيتى فى الحياة حاجة ثانية خالص».

** ويعقب إسماعيل ياسين: «عبيط لا.. لو كنت عبيط ما كنتش وصلت لدرجة إسماعيل ياسين، إنما الستات دائما بياخدوا الطيبة على أنها عبط».

* وقالت: «وأعلنا الخطبة التى لم تدم طويلاً، فلم نلبث أن تزوجنا، وأقمنا في بيت فى حى العباسية، وكنت أحب إسماعيل وأغار عليه جداً».

** ويعقب إسماعيل ياسين: «دى مش غيره. ده جنون».